المجلد الثاني - العدد (6) : 1 سبتمبر 2016؛ ص.
56-64؛ بحث رقم :M23516
رقم DOI : 10.12816/0028580
متوفر على الموقع : www.ajsrp.com

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
ISSN : 2518-5780

دراسة بحثية

اللّقاء الثقافي التّقابليّ بين الأنا العربي والآخر الغربي (رواية الغربة أنموذجًا)

الدكتور / مفتاح محمد محمد عمر البكوش
قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الوطنية الماليزية يو كي ام UKM - ماليزيا
جامعة الجبل الغربي قسم اللغة العربية وآدابها - ليبيا
البريد الالكتروني: alatree2002@yahoo.com

الملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان التفاعل الثقافي بين الأنا العربي والآخر الغربي في رواية الغربة إذ ركز البحث على الجوانب التقابلية وخاصة في الحياة الاجتماعية والثقافية ، لقد سعى الكاتب العرّوي عبر ثنايا هذه الرواية من خلال إصراره على حتمية الجمع بين المكتسبات الجوهرية للآخر والاستفادة منها ، بحسب ماتحتاجه الأنا العربية لتستعيد نهضتها وتضاهي الثقافة الغربية وتطورها دون الانسلاخ عن الأنا والذوبان في تفاهات الآخر والتعلق بقشور حضاراته ،أي أن الكاتب يدعو لتصويب الرؤية وتحديد الاختيار والمسار الواجب اتّباعه لنهضة المجتمع العربي . وأظهرت نتائج هذا البحث أن العلاقة بين الأنا والآخر علاقة بعيدة الأمد حيث إن الثقافة العربية كانت قبل ذلك سائدة في العالم وحصل تثاقف بينها وبين الآخر وكان ذلك نتيجة للحروب ، والمبادلات التجارية ، والرحلات البينية بين الشرق والغرب.

الكلمات الدالة : العرّوي ، الأنا ،الآخر ، الغربة.

ABSTRACT

Represented novel alienation real destination for cultural interaction between the ego Arab west and the other, especially in the aspects of the social and cultural life, I have sought writer Abdullah Laroui across the folds of this novel through his insistence on the inevitability of combining the core of the other gains and benefit from, according to Matanajh ego Arabic to regain its renaissance and comparable to Western culture and its development without alienation from the ego and thawing in the other trifles and hung scales civilizations that any writer calls for vision correction and select the path to be followed for the renaissance of the Arab community. The results of this paper that the relationship between the ego and the other long-term relationship with the Arab culture before it was prevalent in the world and got acculturation between them and the other was as a result of wars, as well as trade and two-way trips between East and West.

Key words: Laroui, I , And The Other, Alienation.

المقدمة

عبدالله العروي مؤرخ وروائي مغربي له العديد من المؤلفات من بينها رواية الغربة ، حيث تعد هذه الرواية ثمرة من ثمرات الاستفادة والتلاقح الفكريّ والثقافي الجامع بين حضارة الشرق وحضارة الغرب ، التي مثلها مثقف شرقي عاش الغربة ليدرك ذات الغربة إدريس بطل الرواية ، الرواية كانت هادفة بالدرجة الأولى إلى وضع الأنا العربي في موقف إيجابي مباشر مع الآخر الغربي، في بلاده ووسط أجوائه وآرائه قصد تشكيل الصورة التي يرغب العرّوي في رسمها ورسم شخصيات حبرية تخدم الغاية التي ينشدها من خلال هذه الرواية فكانت مارية، لارة، الأستاذ يوليوس، نماذج للآخر الغربي في روايته تدلو بدلوها، ويومئ الكاتب من خلالها إلى العلاقة التصادمية بين الأنا العربية والآخر الغربي.

" رحلة إدريس بطل الرواية نحو الغرب وتحديدًا باريس العاصمة الميتروبولية الساحرة مرده رغبة إدريس في معاينة الآخر ووضعه تحت المجهر ، حتى يتسنى له الجمع بين تطور الغرب وخصوصيات العرب عن طريق الفكر والأدب. والعروي ينحو إلى إعادة صياغة العلاقة بين الأنا والآخر ، حيث يصبو إلى الاستفادة من ثقافته الفلسفية في بلورة رواية أدبية تحفل بأبجديات اللّقاء الأزلي بين الشرق والغرب ؛ فراح يصور جوانب ظاهرة منطوقة وأخرى بحاجة للإنطاق، مستغلاً مرونة الجنس الروائي في تمرير أفكاره وتصوراته التي لابد لها من بطل شاب ومثقف يكون بأنحاء الرواية ويجوب بشوارعها اللامرئية يرى الآخر يصوره كيف هو، ما شكله، ما لونه، طبعه ومزاجه، فكره وطريقته في التخطيط للحياة، هي صورة الآخر بعيون مثقف شرقي مغربي حديث العهد بالاستقلال"[1].

"يقدم العرّوي في روايته الغربة صورًا تعكس الواقع المعيش الذي يحكم ويؤصل لخصوصيات المجتمع المغربي لحظة استعادته لمقومات السلطة والتحرر ، ووقت الدخول في معتركات البناء والندية مع الآخر الغربي"[2].

الرحلة إلى الآخر

رحلة الأنا العربي إلى الآخر تبدأ بذهاب الشاب المغربي المثقف إدريس إلى الغرب حتى يتسنى له الوقوف وجهًا لوجه مع هذا الآخر الغربي، ويلمس حضارته وما وصلت إليه على الصعيدين المادي والإنساني، وهذا ما يحيلنا إلى زمن مضى، عندما كان الشرق محج الطلبة الغربيين وقبلة كل مكتشف لعالم جمع حضارة مدعومًا بإنتاجات الأقدمين خصوصًا وإن الشرق لم يكن في يوم من الأيام معزولاً عن بقية أجزاء العالم خصوصًا الغرب . فالتاريخ يقودنا إلى الكثير من مظاهر التعامل بينهما منذ أن شعر الإنسان بضرورة الاتصال بغيره من الشعوب، وما كان يحصل في الشرق عالم الشرق كان يجد صداه في عالم الغرب وبالعكس، حتى كان لنا ذلك التراث الشرقي المنفتح في كثير من وجوهه على التطورات العالمية القديمة والحديثة.

إن هذا الآخر له من التاريخ صفحات سوداء، تبرز لا إنسانية له وتوجهاته الامبريالية، ويذكر الكاتب جرائم الآخر التي يداريها الآن من الانسلاخ عن ماضيه، لأنه يمثل له تأنيباً للضمير وصورة لحقيقته التي يخبؤها خلق الحضارة والتمدن." فالعروي هنا وعلى لسان البطل الراوي إدريس يحفر في ذاكرة الآخر،ذاكرة تكشف صورته السوداوية التي لا يمكن أن يمحوها بريق الحضارة الزائف، فالشعوب الأمريكية كابوس ينغص على هذه الحضارة ويفقدها بريقها، وكذلك الشعوب العربية التي طمس هذا الأخير معالم حظوتها ليقيم على أنقاضه مشاهد تمدنه. ثم إن رواية الغربة تربط هذا الآخر بماضي الأنا أو ذاكرة الذات ، وهذا انطلاقًا من ذاك

التمازج الذي عرفته الحضارة الإسلامية تاريخًا بأوروبا كفضاء جغرافي من خلال حضارة الأندلس التي يبقى رمزها وشاهدها قصر الحمراء بساحته المعروفة بأسودها الحجرية"[4].

وكما إن التاريخ يشهد على ذلك التعايش بين الشرق والغرب، إلا أن الحاضر يثبت عكس ذلك، إن الحاضر فضاء الصراع يبدو محسومًا، ذلك أن هؤلاء الأجانب يعرفون كيف يبثون فنون الريبة في النفوس، يسّفهون العقول ويتحيلون حتى يهدوا البنيان المشيد الثابت هي صورة الآخر الماكر، ذلك الآخر الذي يفعل ما باستطاعته حتى بلوغ غايته، يصور العروي طرق عمله واستراتيجيته المبنية على ضوء مدارس التحليل النفسي بغرض إلهاء المريد عن أخذ ما يريد، وبغرض القضاء على كل مظاهر الوعي والحراك الفكري عند الشعوب العربية حتى تبقى متفرجة على الدوام إلى حين الانهيار العظيم؛ علمنة وبلادة يسعى الآخر الغربي لترسيخها اجتماعيًا فلا دين ولا فكر ولا أخلاق، هي وحدها اللامبالاة سمة الجميع، هي التمرد على الجميع، هي الهاوية والسقوط في فخاخ الآخر.

وعن عالم الآخر يضيف محمود عيسى "هي الأجواء الغربية بتنوعها الثقافي وأنوار علمها الذي يضيء جنبات المعمورة،عالم منظم يحترم المواعيد من المهد إلى اللحد، يغتنم كل لحظة لتأريخ وجوده؛ وجود يحترم ما مضى، ويؤرخ الحاضر بعيون المستقبل. حتى وإن كان إدريس قد جعل من ماريه ضفته الأخرى، وعالمه الآخر ينظر إليها، يحاورها، يعجب منها ومن تصرفاتها إلا أن رواية الغربة تضم آخرًا آخر هي لارة جاءت هذه الشخصية الروائية لتصور ذلك الآخر الغربي الذي خرج من شرنقة التاريخ والماضي معلنا معه القطيعة"[5]. فبحث مارية عن إدريس إنما هو حقيقته عودة إلى ذاك التاريخ المشرق من حضارة الشرق في أوروبا، حين كانت رايات العرب خفاقة في سماء الأندلس، فقد توقفت أوروبا في ظلاميتها ولما انتبهت لم تجد على أراضيها أولئك الذين عمروها بالأمس، فتبعتهم إلى حيث عادوا، تبعتهم عبر البحر، غير أن المفارقة بين مجيء الغرب إلى الشرق وولوج مارية عباب الماء هو أن هذا الغرب جاء هذه المرة غازيًا لا محبًا، وكأنه كان يبحث عن أخذ ما تبقى للشرق من إشراق حضاري حتى يطمسه في ظلامية تاريخه ، كما إن مجيء الغرب نحو الشرق اتخذ شكلًا آخر إلى جانب الاستيطان الأمبريالي، إنه شكل اتخذ من الكشوفات المعرفية وسيلة لمحاورة الشرق، وهذا ما يعرف في الفكر العربي بالاستشراق وهذا ما يمثله في الرواية يوليوس ذلك الأستاذ الغربي الذي أغدق على تلميذه عمر بفكره، وطعمه بفلسفته ورؤاه حتى جعل منه غدا والتلميذ يشدو ويدعو بدعاوى أستاذه.

وتبدو شخصية يوليوس مهتمة بمدارسة التراث، حيث يقول العروي واصفا إياه "يوليوس الذي سئم بيع الكتب والنقاش الحاد والمبارزة في الشوارع فأبحر قبل أن ينهي دراسته في يوم من أيام الصيف بعد أن استمع إلى محاضرة في قاعة مظلمة قصد بلاد الشموس، بلاد الوفاء وقال إني جئتُ إلى هذا البلد كمن جاء قبلي بدافع الذكرى والخيال... أي فرق بيننا؟ هم يريدون متاع الدنيا وأنا أريد راحة البال،كلانا يستعمل هذا البلد كوسيلة"[6]. فيوليوس هو صورة للمستشرق الغربي الذي جاء كما جاء الآخرون، للاكتشاف والبحث في ماضي البلاد العربية، واضطر للخروج منها بخروج الغازي المحتل؛ ذلك أن الاحتلال مربوط الأواشج بالاستشراق، حيث مثل تمهيداً له، خصوصًا وأن الدراسات الاستشراقية كانت بمثابة تقارير استخباراتية مساعدة على سبر أغوار المجتمعات العربية. كما يرتسم الآخر كافراً بالعودة إلى المرجعية الدينية، وهذا ما يمثله العروي من خلال تعرضه لنظرة الأنا للآخر فهو يناقضها في العقيدة، يقف إدريس وسط الديانات بين الإسلام والمسيحية واليهودية، في بلاد الغربة حيث الوحدة والتوحد، حيث الصمت لالتقاط الأنفاس، يخشى منه أن يعلم الذات الكفر؛ تلك الذات التي يرسمها إدريس في تطوافه وتجواله في بلاد الكفر، غير أنه يبقى نقي العقيدة سوى الفطرة رغم التطواف في بلدان الكفر لم يتعلم أي بدعة زاده الله علما وإيماناً.

هكذا هو الآخر بعيد عن العلم مارق من الإيمان بعيد عن جادة السواء حسب المنظور الديني العقائدي للعروي الذي يجزم بأن كثرة الترحال والتنقل من بلاد لأخرى قد أفادت إدريس مثقف العرب والمغرب فلم تهتز سرائره أمام إغراءات الغرب وحريته الزائفة بل على العكس، فقد عرف ذاته أكثر فأكثر بدليل زيادة علمه، وأيضا زيادة إيمانه الذي نضج وارتقى بملاقاة الآخر، والتصادم مع الطروحات العقائدية الأخرى التي تبرز نورانية الحق وظلامية الباطل .جاءت رواية الغربة لتعزز البناء الروائي الغربي والمغربي شكلًا ومضمونًا حيث صورت غربة الأنا العربية والمثقف الغربي بالأخص إلا أنها أوضحت أن الغربة ضرورية لمعرفة الأنا بذاتها عند ملاقاتها للآخر ومجابهته، فتكون إما ذاتا مدركة لذاتها وإما ذاتا مهزوزة مهزومة يفعل فيها الآخر ما ظهر له ورآه في خدمة أنانيته ونرجسيتها.

" تعددت ألوان الآخر وتشابكت؛ إذ إن صورة الآخر قد شكلت موطنًا لاختلال المهتمين بهذا المجال، فكل يراه حسب قناعاته وتوابته مما خلق نوعًا من التباين في الطروحات الفكرية والأيديولوجية التي تناولت ثنائية الشرق والغرب بحيز الاهتمام؛ إلا أن توحيد الرؤى حول الغرب ليس مطلقًا وكذلك الشرق، فالواحد منهما اكتشف الآخر بطرق مختلفة والشرق الغربي كون صورًا حسية وذهنية حول آخره الغربي مثلما هو الحال في المجالات الأدبية والفنية كذلك في ميادين الفكر والسياسة، إنها صور مختلفة تصل حد التناقض حتى أنها تحملنا على أن نلاحظ أن لكل واحد غربة وأن طبقة مثقفة أو إيديولوجية بنت مفهومها الخاص لهذا الغرب الذي لا يكف يزعزع أصول نظرتهم إلى أنفسهم وإلى العالم الآخر"[7].

"والمتصفح لأعمال العروي الفكرية، الفلسفية، التاريخية والروائية يلمس رغبة لهذا الكاتب في وضع منهاج إيديولوجي قائم على ركائز حضارية وثوابت تاريخية وعقائدية وآفاق تطلعيه هادفة إلى تصوير الأنا العربية في علاقاتها المباشرة وغير المباشرة مع الآخر الغربي، خصوصًا وأن العرّوي يكون قد أدرك أن ميلاد الرواية العربية شيء من المغامرة إيغال في الماضي ومسايرة للواقع واستفادة من التجربة الإنسانية وخضوع لميزات الشخصية العربية الضائعة في احتلال مكانها في الصراع العالمي الحديث من أجل البقاء وإبراز الشخصية "[8].

لقاء الأنا بالآخر

تمثل اللقاء في رواية الغربة بين أدريس ولارة ومارية من جانب ، إضافة إلى يوليوس الأستاذ العالم بأمور الشرق وحنينه للعودة وتلميذه عمر معه مقتد به لا يرى إلا ما يراه الغرب وعرابوه من الجانب الآخر. من أجل تبيان ما كانت عليها أحوال الشرق والغرب ، أحوال الأنا والآخر الغربي تتقابل الوجهتان يمثلهما إدريس ومارية فيقول العروي بلسان مارية "سيقولون لك هنالك وراء البحر انفتحت الآن أبواب القصور المزلجة والمغابي المزخرفة ومهدت لكم طريق الربوة العالية والفنادق الفخمة، لعل الأمر كذلك، لكن الجديد يكمن في القلوب لا في الدُور المشيدة على الكورنيش وعلى القمم ، تتسرب اليوم إلى أفئدتنا استشعارات فاترة كالتي تنجم عن رؤية الشيب والعين الذابلة، لا هي الغيظ المستشيط ولا هي الإستسلام المبتسم.. وقفة الزمن على شواطئ البحر في زرقة المغيب ونطلع العطف والرحمة إني في أحضان لارة أحاول ما استطعت ألا أغرق في حنانها وأنت يا إدريس لا تقف يوما تتأمل مياه الجليد وفقاقعها الفضية حول أعمدة جسر الرون، ولا تغرق في ماضي بلدتك الخضراء، ربما نلتقي من جديد ..ربما ترمي الرواية إلى التأكيد بأن أي تغيير منشود متوقف على إصلاح القلوب والنفوس، إن الغرب دائما يحن للشرق، وخير الشرق وجمال الشرق . تحكي مارية لإدريس واقع العلاقة بين الشرق والغرب التي تبقى دومًا في صراع، ومارية تلك الضائعة بين المدن أين المستقر؟ لا تزال

مترددة، تائهة رغم أنها تحاول قدر استطاعتها ألا تذوب في الغرب، وفكر الغرب ومكر ماكريه، هي تواجه تيارًا جارفًا أسمه لارة ؛ تمتلك النضج والحنان، وهي من أسرة تؤمن بالغرب وبحريته ، وتقول عن نفسها إذا تخلى عنك القدر فاقصده بقدم ثابتة . رغم الكبوات والعثرات تبرز لارة إصرار الغرب، عشقه للمحاولات، أمله في الحياة رغم لكمات القدر والمطبات المهم هو الكفاح بغية النجاح، نجاح المخططات، لقاء المحبوب للمحبوب، تذويب الشعوب، قصدتُ باريس دون التواء، ووصلتُ ذات صباح مشرق وعم حبي الإنسانية جمعاء باختلاف ألوانها وأنغامها والناس من حولي مطمئنون أن الزمان جبار يقهر بالحب والإيثار ونسيت كل شيء يقول هكذا هي لارة منطلقة، تركت خلفها ماضيها، وراحت تبحث لها عن بدائل أخرى لإعلان الاستمرارية وصديقتها مارية واقفة بين البينيات، فتتنهد : يا عجبًا كأن الروح يغرق في كيانه وفي الغرق رجوع إلى النّفس الدفينة" [9].

"الرجوع إلى الحياة الروحية وما تحمله معها من صفات السكينة والصفاء الذي تعكر وامتزج في بلاد الغرب بعدما أصبحت حضارة مادية محضة، أفقدت الإنسان روحانيته، وبدأ الإنسان الغربيّ متجردًا من كل القيم الروحية؛ وهنا بدأ يعاني نوعًا من القلق النفسيّ، بل إن الحضارة الغربية أصبحت لا تشبع متطلبات النفس الإنسانية التي لابد لها من سند روحيّ يكفل لها الهدوء والراحة والاستقرار لمواجهة حياة يكون فيها الإنسان عرضة لمجازفات وتجارب ومخاطر وعوارض وأهواء تعد من إصابات الإنسان نفسه، بسبب علمه المحدود، وعمره المحدود، ومعارفه النسبية، وميوله المتنوعة، وغرائزه المتدافعة، إضافة إلى عجزه عن إدراك الحقائق الغيبية، عن النشأة والمصير، التي لا تزال تشكل له قلقاً يذهب أمنه النفسي، وينعكس على كسبه وإبداعه بنوع من الاضطراب، وعلى أهدافه بالاهتزاز، وعدم الثبات مهما حاول الهروب والانغماس في عالمه المادي، لذلك تشتد الحاجة به إلى الموجه لطاقاته، والمرشد لمسالكه، من مصدر خارج عن نفسه يمتلك العلم المطلق، الذي لا يحده زمان ولا يقيده مكان ولا تخفى عنه خافية" [10].

وفي رواية الغربة يجعل العروي من لارة التي تمثل الحضارة الغربية تبدو وكأنها تعاني من فراغ روحي رهيب متصل بالإيمان ، الإيمان الذي يبعث دومًا على الحيوية والاستمرارية، وتلك هي الخاصية التي بحثتت عنها فاستشفتها في إدريس الذي كان يملك شحنة إيمانية كانت تعوزها هي .كما أن الآخر الذي يرسمه العروي من خلال روايته الغربة يبدو منقطع الرجاء من رحمة الخالق، ذاك أنه ابتعد عن القيم الدينية المتأصلة فيه، وغطاها بمادية الحضارة التي صنعها بيده ليصبح في النهاية هو ضحيتها الأولى.

يقول سعيد يقطين "هي مجموعة صور اجتماعية في لقاء الأنا بالآخر الغربي في رواية الغربة، حيث تتعرى الحروف وتتبدى جلية جلاء الوصف الذي يرغب الكاتب في تحريره عن هذا الآخر، وكيف ينظر إلى الشرق، فكانت الزاوية نفسها، وكانت الغربة نفسها وإذا كان الواقع هو حجر زاوية الاهتمام والتفكير في أغلب الإنجازات الفنية والفكرية سواءً تعلق الأمر بالتعبير عن الأنا، أو اتخاذ الموقف من الآخر الغرب، فإن الرواية العربية من خلال بعض التجارب عملت ومنذ أواخر الستينيات من القرن الماضي إلى النظر في الواقع من خلال التعامل معه باستثمار التاريخ وحاولت بذلك تقديم صورة جديدة للواقع، باعتبار جذوره في الزمان ، وباعتبار ضرورة بلورة مستقبل مستثمر لتجارب الماضي بغرض تحقيق الوحدة والانسجام بين الوعي الجمعي والذاتي بالواقع المعيش؛ ورواية الغربة من هذه الروايات التي أكد من خلالها العروي بضرورة استثمار الماضي ودمجه في الحاضر لبناء المستقبل، مستدلاً على ذلك بقول اندريه جيد التاريخ رواية واقع والرواية تاريخ متوقع ، فكانت رواية الغربة من معالم تصوير الواقع تاريخيًا، حاضرًا ومستقبلاً، باعتبار الجوانب الفيزيولوجية والوجدانية والاجتماعية من مقومات هذا البنيان التصويري لكل من الأنا والآخر الغربي"[11].

صورة الآخر

شخصية مارية التي تمثل صورة من صور الآخر في رواية الغربة يقدم لها الكاتب وصفًا فيزيولوجيًا انطلاقًا من تشخيص لصورة رسمتها لها صديقتها لارة "دخلت مارية إلى الغرفة ووجدت كل شيء على حاله، صورتها في زيها الوطني وكذلك الرسم الذي طولت فيه لارة الأنف ونقصت من الذقن ووسعت المقلتين فبرزت مارية كالطريدة المذعورة"[12].

يقول عبد القادر شريف في هذا الجانب " لعل هذا الوصف إنما يستمده الروائي من نظرة الغرب لأبناء الشرق الذين ذهبوا مهاجرين نحوه ينشدون حبه وحريته ثم تحولوا عن ذاكرتهم إلى وقوع في الانسلاخ عن ماضيهم فهم كالفارين من أنفسهم، والمقاطعين بما هو متأصل في ذاتهم، فالفرار المرتبط بالذعر لا يلغي حضور ما يخيف في ذات الفار وأعماقه. كما يبين أن هذا التغيير المقصود في صورة مارية مرده إلى لارة ، فلارة هي من طولت من الأنف وفعلت الأفاعيل بصورة مارية ، لقد تغيرت مارية جسمانيًا وتعيش التغير نفسيًا واجتماعيًا؛ أي أن الضفة الأخرى من المتوسط قد قلبت قلبها وقالبها وصارت نموذجا من نماذج الغرب في نظرها، بشكلها وجرأتها، فمارية لم تكن مجرد امرأة غربية عادية، لقد كانت ترمز وتمثل كل ما يملكه الغرب من علم وثورة على التقاليد وقد كانت تدفع بإدريس إلى تغيير الكثير من قيمه ومعتقداته ولعل أصدق دليل على ذلك حادثة التعري"[13].

إن التحرر من جميع القيود والثورة على الأعراف والتقاليد من خطابات الآخر الغربي الذي يتمنى أن يجعل من بنات الشرق جميعهن ماريات عاريات فيقول عنها العروي" رآها تجرى إلى البحر أمامه عارية، ورأى الشعر الجعد الشحث والذراعين النحيلتين والظهر المقوس والفخذين القصيرتين والساقين كأعواد الطبال اندهش مثقف العرب إدريس من حرية تعري الأجسام وتسفه الأعلام؛ أهذه هي المرأة الغربية؟ أهكذا يرغب الغرب؟ تجري النساء عاريات دون حسيب أو رقيب أو عتيب في بلاد الشرق وفي حضارة عقيدتها تخص النساء وتعزهن إما عن شخصية لارة هذه المرأة الغربية التي تربو على الأربعين ،كانت محمرة البشرة مهلهلة الجلدة تفتر عن سنتين ذهبتين وتصفها صديقتها مارية فتقول :طلعت لارة كما تخيلها من قبل ببنطلونها الأسود، شعثاء باهتة الوجنتين غير مزينة لكنها خلافا للعادة لابسة حذاء مغربيا مذهباً"[14].

هي صورة لها دلالتها الرمزية، فهذه الملامح الجسدية التي تقدمها الرواية إنما هي من صميم حقيقة الآخر الذي يرى نفسه وكأنه لا يعرف نفسه ولم يرقط صورته على حقيقتها، حيث تتعرى العيوب وتظهر الملامح الموحية بحجم الضغوط والقلق النفسي الذي يعيشه هذا الآخر وسط هذا الزخم من المتناقضات .ثم يواصل العروي وصف لارة وصفًا فيزيولوجيًا جسديًا،"كانت لارة عارية الرأس وخصلات شعرها المبتل متدلية على قفاها، تسير بعزم أمام مارية وكأنها تستعيد في مخيلتها حوادث القصة، البين منها والخفي قصة غرب متعب شب على الكر والفر والهجرة واللجوء فشاب حسرة وأسى، أما مارية فهي تقتدي وتهتدي بنور الغرب وتسير وفق مرآه" [15]. فقد أفرز طابع الاستعلاء لدى الغرب موضع الشرق وأخضعه للدراسة من الزاوية التي أراد دراستها مما أفرز دراسات استشراقية ترمي إلى أسر الشعوب الشرقية العربية ووضعها تحت الوصاية، وصاية تختلف عن الاستعمار المادي وإنما هو استعمار ذهني فكري يجرد الشرق من إنسانيته ويصوره مجرد كائن عضوي أشبه بالكائنات الطبيعية الجامدة أو الحية على أكثر تقدير، ليس فكر أو علم، إنسانية مجردة مثل الأحجار وهو موطن السحر والدين والخرافات والأوهام وظلام المعابد وتعاويذ الكهان إلا أن ذبذبات الاستشراق قد غدت في خمسينيات القرن الماضي ممارسة في مراحلها الأخيرة بعد أن بدأت الشعوب في الانتفاض ضد الأمبريالية بكل أشكالها، سواء أكانت احتلالاً أو استشراقًا.

"تقول زهرة بلحاج في رؤية الاشتراك بين الأنا والآخر في الحرية المطلقة؛ التي أوصلتهما لأن تشاهدا الواقع، ولكن ليس كما يراه الآخرون؛ حرية يعرفها الغرب شكلاً ومغزى من خلال القوالب القانونية التي صاغها في اجتماعات تنادي بحرية الفكر والمعتقدات واحترام إنسانية الإنسان، ولكن هذا الغرب ويتحول إلى قوة استعمارية هدفها الأول تحقيق مطامع مادية لذلك لم يتوان عن خنق الحريات واغتصاب الحقوق وحتى العمل الإنساني أصبح يوظف من أجل استراتيجيات الهيمنة واستغلال قول تطبيق الحريات شكلاً دون تطبيق "[16] .

إن هذا التحول بين القول والفعل جعل الغرب موضع شك وريبة، فكانت مارية تصارع نفسها، "هكذا صورها عبد الله العروي لقد صور المجتمع ينظر إلى مارية وكأنها ممسوسة من الجن وإني لكارهة أن أكون أمامك في هذه الحال، تقول أماه إنهم يدعون أني مسكونة لا أقول ولا أفعل ما أشاء، وهل سألني أحد عن حالي؟ بل رأيهم كرأي العامة إن الطبيب لا يمرض هل الغرب لا يمرض؟ الغرب دائمًا وأبدًا متفوق في كل شيء، هذا ما تم تصديره للأنا بوعيها، ورؤيتها للآخر على أنه المؤثر لا المتأثر، الشافي وصاحب العلة دائما لا المعلول، فترى الأنا خائفة من هذا الآخر على الدوام، فيقول العروي بلسان إدريس إني أرهب الغير بقدر ما أخاف منك يا مارية من ضيقك وانغماسك وحدك في الفضاء لم تستطع مارية نسيان أبجديات الغرب وتعاليمه، فأضحت شابة من شباب الغرب، حرة من كل قيد أو وازع يمنعها أن تفعل ما بدا لها؛ تقدمتُ نحوه حتى إذا أصبحت منه قريبة جدا جذبته بغتة وقبلته تقبيلاً حارًا متجددًا [17].

" أما بخصوص لارة هذه الفتاة الغربية المهاجرة، التي تحتسي من شراب الحرية وتعيش بدفء الفن والجمال، إذ كانت أستاذة من أساتذة الموسيقى؛ والموسيقى صناعة في تأليف النغم والأصوات ومناسباتها وإيقاعاتها وما يدخل منها في الجنس الموزون والمؤتلف بالكمية والكيفية، والأصل فيها غريزة في الإنسان خلقتها له الضرورة والرغبة الباطنة فيه بإخراج الأصوات على أنحاء مختلفة عند الإنفعالات الحادثة في النفس، فتلتذ بها عند طلب الراحة أو تسكن بها الانفعالات أو تنمي، أو تكون معينة على تخييل المعاني في الأقاويل التي تقترن بها" [18].

"والعروي يجعل من لارة معلمة من معلمي الموسيقى إذ تحذو في طريق سبقها إليه أجدادها، إذ أن القدماء من اليونانيين هم أيضا أول من وضعوا قواعد العلم والمعرفة بهذه الصناعة، وكان علماؤهم يعدون معرفتهم بالموسيقى من مستلزمات التعاليم النظرية والفلسفية لارتباطها بالعلوم الطبيعية، وعلوم المنطق، وإلى هؤلاء يرجع الفضل في تعريف أصول ومبادئ هذا العلم"[19].

ويضيف يوسف السيسي "ولارة رغم أجواء الحروب والهجرة استطاعت أن تتكيف مع الأوضاع الجديدة، وراحت تبحث عن سبل إيجاد نمط عيش تداري به جراحاتها ، ويعينها على عوائد الحياة، فكانت الموسيقى غذاء روحها وعزاءها، إذ أن هذا الفن لا يوجد إلا في ضمير البشر وذاكرتهم .ولا يكون عذبًا إلا عندما يتردد رنينه في تاريخ الذكريات وفي عقول صحيحة تربط بين الحاضر والماضي في لحن واحد متكامل"[20]. " لقد شكلت لارة نموذج الآخر الغربي مع مارية الملتحقة حديثًا بتيار الغرب، الذي جذفها إليه فلم تقاوم، بل على العكس فقد كانت بحاجة ماسة إلى خلع رداء الشرق دونما مقابل، المهم أن تعيش بالغرب وفي الغرب وللغرب، وصديقتها لارة تراقب عن قرب.شربت لارة من كأسها وقالت :جئتني مريضة يا مارية، مريضة جدّا، ولست أدري هل دواؤك حقا على هذه الأرصفة المبتلة "[21]. "هكذا يصف العروي حالة الشرق الممسوخة والمريضة جدا؛ فقد أشتد وهنها وضعفت شوكتها، وصارت في مفترق الطرق؛ بعد أن كان الغرب تائهاً في ظلاميته يلتمس قبسًا من نور الشرق يضيء به دروبه، صار أن انتقلت عدوى التيه والعجز الحضاري إلى الشرق وأبنائه؛ ومثلما نال

الفن والموسيقى حظه في رواية الغربة كصورة اجتماعية لممثلة المرأة الغربية لارة ، حيث منحها العروي شرف مواصلة درب الغرب وتبيان منهجه وأسلوبه في التفكير في العلم وفي الحياة؛ وقد أبان العروي أن تاريخ الشرق والغرب عادة ما يروى على شكل سلسلة ثنائيات متضادة يونان ضد الفرس، رومان ضد القرطاجيين، بزنطيون ضد العرب، وأخيرا أوروبيون ضد العرب المتطلعين للاستقلال"[22].

استطاع العروي أن يجد من يحمل عنه تصوير الآخر الغربي في رواية الغربة ويسرد بلسانه أفكاره وثوابته، فمن دروس يوليوس قوله أجعل العقل نبراسًا للعمل، لا تتطاول على الجبال ولا تندم على شيء فأنت الفرد فوق الجماعة هي أفكار الغرب عامة في منهجية بحثه، في تواضعه للعلم وفي عدم إضاعته للوقت بالوقوف على الأطلال .هي أفكار الوجودية في تقديسها للفرد حتى أضحت على ماهي عليه؛ دون أن تنسى أو تتناسى بأن قوتها الحضارية مستمدة من العلم والعلماء، شريطة الحيطة والحذر من بزوغ نور الشرق، واتخاذ الغرب لجميع الاحتياطات للحيلولة دون ذلك. "عند الحديث عن الآخر الاجتماعي في رواية الغربة لابد من التنويه بالخط الذي التمسه عبد الله العروي في تصويره للآخر الغربي، بوظائفه ومعتقداته؛ فالذات مشرقة بإسلامها ولو أفلت، والغرب منتشي بحرية أفراده وتحرره من دياناته، وإن وجدت الإشارة إلى المسيحية واليهودية عبر رواية الغربة ، وقد أشار العروي إلى ذلك بصورة مقتضبة وفي ذلك تأكيد على أن الآخر الغربي، قد أسس مجتمعاته الحاضرة بناءًا على فصل الدين عن العلم والحكم ثم إن العلم لا الدين قد أصبح أساس الحياة في المدينة الغربية وتبع ذلك أن العلماء اليوم هم الذين يرسمون الخطط ويدعون إلى الإصلاح بدلاً من رجال الدين والأولياء "[23].

الخاتمة

قدمت لنا رواية الغربة صورًا للّقاء الثقافيّ بين الأنا العربي المهاجرة والآخر الغربي ، وجاءت شخصيات الرواية تمثل نماذج لذلك التلاقي والتلاقح الثقافي . حيث ربطت الرواية ماضي الآخر بماضيِ الأنا ، وهذا انطلاقًا من التمازج الذي عرفته الحضارة الإسلامية تاريخيًا بأوروبا . سطر العروي في روايته ملامح اللّقاء بين الأنا والآخر، ولكن غلب على طابعه الروائي الغرب وحضاراته ففي معظم فقرات الرواية ظهر مندهش بالغرب تارةً ومتمسك بالفكر الإسلامي تارةً أخرى. قدم الكاتب نموذجًا روائيًا في لقاء الشرق بالغرب في العصر الحديث . هكذا عبرت رواية الغربة في طيِ صفحاتها حول لقاء الأنا العربية والآخر الغربي.

هوامش الدراسة

[1] انظر: الذوادي ، رشيد ، أحاديث في الأدب ، (مصر: الهيئة العامة للكتاب ،1986م)، ص.7.

[2] انظر: المعوش ،سالم ، صورة الغربة في الرواية العربية، ط1،(بيروت : مؤسسة الرحاب الحديثة ،1998م) ،ص15.

[3] انظر: العروي ، مرجع سابق ،ص16.

[4] انظر:السابق نفسه ،ص23 .

[5] انظر: عيسى، محمود ، حديقة الأسماء ، ط1، (لبنان : مؤسسة سحنون ، 2003م)، ص154.

[6] انظر: السابق نفسه ،ص38.

[7] انظر: بلحاج ، زهرة ، الغرب في فكر هاشم شرابي ،ط1 ،(بيروت : دار الفارابي ،2004م) ، ص 106.

[8] انظر: المعوش ، مرجع سابق ،125.

[9] انظر: السابق نفسه ،ص 18.

[10] انظر:حسنة ، عمر عبيد ، روح الحضارة الإسلامية ، ط4 ، (لبنان : الدار العربية ،2005م)، ص 12 .

[11] انظر: يقطين ، سعيد ،من النص إلى النص المترابط مدخل إلى جماليات الأبداع التفاعلي ،ط1،(المغرب : المركز الثقافي العربي ،2005م) ،ص15.

[12] انظر: العروي ، مرجع سابق،ص18.

[13] انظر: موسى، عبدالقادر الشريف ، أشكال الصراع الخضاري في الرواية العربية ، (رسالة دكتوراه ، الجزائر: جامعة تلمسان ، كلية الأدب ، 2004م) ،ص39 .

[14] انظر: العروي ، مرجع سابق ،ص16 .

[15] انظر: السابق نفسه ،ص46 .

[16] انظر: زهرة بلحاج ، مرجع سابق ، ص87 .

[17] انظر:عبدالله العروي ، مرجع سابق ،ص 104 .

[18] انظر: الفارابي ،نصر بن محمد ،كتاب الموسيقى ،(مصر: دار الكاتب العربي .د.ت) ،ص15.

[19] انظر: مهنسي، عفيف ، جمالية الفن العربي ، سلسلة عالم المعرفة ، ع14، 1979م ، ص11.

[20] انظر: السيسي، يوسف ، دعوة إلى الموسيقى ،سلسلة عالم المعرفة ، ع 46، 1981م، ص5.

[21] انظر: العروي ، مرجع سابق ، ص26.

[22] انظر: غنيسة ، نصر الدين ، في بعض قضايا الفكر والأدب ، ط1، (الجزائر: شركة دار الأمة ،2002م) ص92.

[23] انظر: أمين، أحمد ، الشرق والغرب ،(مصر: مكتبة النهضة المصرية : 1967م) ص 131.

المراجع

1)عبد الله العروي . 1986 .*الغربة* . ط4 . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . المغرب.

2) أحمد أمين .1967 . *الشرق والغرب* .مكتبة النهضة المصرية .مصر.

3)رشيد الذاودي .1986. *أحاديث في الأدب* . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مصر.

4) سالم المعوش . 1998 . ط1. *صورة الغربة في الرواية العربية* .مؤسسة الرحاب الحديثة . لبنان.

5) سعيد يقطين . 2005 .ط1. *من النص إلى النص المترابط مدخل إلى جماليات الأبداع التفاعلي* . المركز الثقافي العربي .المغرب.

6) عمر عبيدة حسنة .2005. ط4. *روح الحضارة الإسلامية* .الدار العربية . لبنان.

7)محمد الحسيني إسماعيل .2005 .ط1. *الإسلام والغرب المواجهة والحل* . مكتبة وهبة . مصر.

8) محمود عيسي . 2003 . ط1 . *حديقة الأسماء* . مؤسسة سحنون . لبنان.

9)نصر الدين بن غنيسة .2002. ط1 . *في بعض قضايا الفكر* والأدب . شركة دار الأمة . الجزائر.

10) يوسف السيسي .1981. *دعوة إلى الموسيقى* . سلسلة عالم المعرفة . العدد 46.

11)أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي . *كتاب الموسيقي الكبير* . دار الكاتب العربي للنشر. مصر.

12)عفيف مهنسي . 1979.*جمالية الفن العربي* . سلسلة عالم المعرفة . العدد 14.

13) شريف عبدالقادر موسى . 2004. *أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية* . رسالة دكتوراه في الأدب العربي . جامعة تلمسان . الجزائر.

14) الزهرة بلحاج .2004.ط1.الغرب في فكر هشام شرابي .دار الفارابي . بيروت . لبنان.